

# المشرقُ الرقْمِيَّة



مجلة إلكترونية تصدر مرتين في السنة عن دار المشرق  
العدد الأول. آذار ٢٠١٣

## الترهب في الأيقونوغرافيا البيزنطية

الأب سامي حلاق اليسوعي\*

### مقدمة



كثيرون كتبوا عن حياة الترهّب، وكثيرون أيضاً رسموا رهباناً معيّنين وصوروا فضائلهم. بيد أنّ قلّة قليلة صورت الحياة الرهبانية بالرسم والألوان. لا شكّ في أنّ الأيقونة التي سننكّم عليها نادرة، وربّما لم يرها القارئ في حياته ولن يراها، لكنّها تنتمي إلى التقليد الأيقونوغرافيّ، وتصميمها كما سنقدّمه يعود إلى العصور الوسيطة.

تهتمّ أيقونات الراهب بتصوير

حياته الداخليّة وصراعه الروحيّ أكثر من تصوير حياته الخارجيّة وبرنامجه اليوميّ والأجواء الديرية. لذلك ينتمي هذا النوع من الأيقونات إلى فئة الأيقونات اللاهوتية<sup>١</sup>.

\* باحث. له عدّة كتابات في الفنّ البيزنطيّ والأيقونات. عضو في أسرة دار المشرق.

## الراهب

يظهر الراهب في أيقونة الترهّب مصلوبًا على صليب، ولبس ثوبه الرهبانيّ الأسود، ويغطّي الإسكيم رأسه علامةً على الجهاد الروحيّ الذي نوى أن يجاهده. رجلاه حافيتان ومسمّرتان على الصليب، لأنّه صلب نفسه عن العالم، يخفض نظره ويغلق فمه، وفوق القائم الأفقيّ للصليب وبالتوازي معه كُتبت العبارة التالية: «إجعل يا ربّ حارسًا لقمي وبأبًا حصينًا على شفتيّ». ذراعه مفتوحان ولكنهما ليسا مثبتّين بمسامير على الصليب، ويحمل بيديّه مشعلين متقدّين، وبالقرب منهما هذه العبارة: «هكذا ليُضيء نوركم للناس ليروا أعمالكم الصالحة فيمجّدوا أباكم الذي في السموات».

على صدره رقعه تشبه القلب، ودرج الرسّامون على تلويها بالأحمر، كُتبت عليها: «قلبًا نقيًا اخلق فيّ يا الله وروحًا مستقيمًا جدّد في أحشائي». وعلى بطنه صحيفة أخرى بشكل يافطة مع هذه الكلمات: «لا تتخدع أيّها الراهب بملذّات البطن». وفي أسفلها، على مثانتها، صحيفة أخرى تقول: «أميتوا أعضاءكم على الأرض». وتحتها أيضًا، تحت الركبتين، صحيفة أخرى تقول: «هيئوا أقدامكم لطريق إنجيل السلام».

## الصليب

يشبه الصليب في هندسته صليب المسيح، لأنّ الحياة الرهبانيّة الأرثوذكسيّة هي اقتداء بالمسيح المصلوب. وكما أنّ بيلاطس أمر الجنود بوضع عبارة: "يسوع الناصريّ ملك اليهود"، نجد على صليب الراهب وفي المكان نفسه يافطة مسمّرة عليها هذه الكلمات: «لا تفخروا أمامي إلاّ بصليب ربّي».

---

<sup>1</sup> نذكر القارئ بتصنيف الأيقونات الشائع في الدراسات النقدية: أيقونات شخصية (تصوّر الشخصية في بورتريه)، وأيقونات تاريخية (تصوّر أحداثًا تاريخية)، وأيقونات تعظيمية (تصوّر الشخصية في مجدها)، وأيقونات لاهوتية (تصوّر قضايا لاهوتية).

عند أطرف الصليب الثلاثة الأخرى ثلاث دوائر تشبه الأختام، يُكْتَبُ الحرف الأوّل من كلّ عبارة فيها باللون الأحمر، والجملة مختصرة، يجد المشاهد نصّها الكامل بالقرب منها نحو الأسفل. في الدائرة على اليمين نجد الكتابة التالية: «مَنْ يَثْبِت حَتَّى النّهاية يخلص». وعلى اليسار نجد هذه الكلمات: «مَنْ لا يتخلى عن كلّ ممتلكاته لا يستطيع أن يكون تلميذ المسيح». وفي الدائرة السفليّة مكتوب تحت مصطبة الصليب: «الطريق الذي يقود إلى الحياة ضيق ومملوء بالأوجاع».

### حول الراهب المصلوب

إذا تتبّعنا ما رُسمَ حول الراهب المصلوب من الأعلى إلى الأسفل، على مستوى الصليب، نجد على يمين الصليب قبة كنيسة أرثوذكسيّة يعلوها صليبُ المسيح وتحتها مذبح. وعلى اليسار ظلام دامس نكاد لا نميّز فيه شيئاً.

في المستوى الثاني نحو الأسفل نجد شخصين، الأوّل محاربٌ صليبيّ والآخر عربيّ يطعان الراهب، علامةً على الاضطهاد الذي تتعرّض له الكنيسة الأرثوذكسيّة من الكاثوليك والإسلام. وعلى مستوى الحربين عبارتان: على اليمين: إقبل الهرطقة، وعلى اليسار: إجد بإيمانك. وفي هذا المستوى نجد رايةً كُتِبَ عليها: «أستطيع كلّ شيءٍ بالمسيح الذي يقوّيني».

في أسفل الصليب وأسفل اللوحة نجد على اليسار وحشاً يشبه التنّين يلفظ لهباً وأبالسة تشدّ الصليب بسلسلةٍ حديديّة وعبارة تقول: «الجسد ضعيف ولا يستطيع أن يقاوم». وعلى اليمين صورة شاةٍ كُتِبَ بجانبها: «مال الدنيا»، وكتلة لهبٍ كُتِبَ بجانبها: «أشواق الحب».

## السماء

في قسم الأيقونة العلويّ تظهر السماء بألوانها الذهبية المنيرة. في الوسط يسوع المسيح يحمل بيمينه إكليلاً من الورد وبيساره تاجاً ملكياً ويستعدّ ليمنحهما للراهب<sup>٢</sup>. وفوقه عبارة «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَنِي فَلْيَكْفُرْ بِنَفْسِهِ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتَّبِعَنِي». وعلى يمين المسيح ويساره ملاكان يحملان صولجانين وكرتئين كما عهدنا أن نراهما في أيقوناتٍ أخرى.

في الأيقونة التي ننشرها لا تظهر بعض الأمور التي نجدها في أيقوناتٍ أخرى شبيهة، كأن يحمل ملاك اليمين صحيفة كُتِبَ عليها: «الربّ أرسلني لنجدتك»، وعلى صحيفة ملاك اليسار: «إفعل الخير ولا تخش شيئاً». أو ملاكان ينظران إلى الراهب ويدلّانه على المسيح، ويحملان صحيفة بشكل يافطة مع هذه الكلمات: «جاهد لتنال إكليلاً البرّ فيمنحك الربّ تاجاً بأحجارٍ كريمة».

نجد نموذجاً لهذه الأيقونة مرسوماً في لوحةٍ جداريةٍ بحنية الكنيسة الرئيسيّة لدير فيلوثيو بجبل آثوس. ولا يهاجم الراهب المصلوب الزنى والأباطيل وحسب، بل الخطايا الرئيسيّة السبع معاً مُشخصنةً بشياطين مصوّرة بطريقةٍ في غاية الروحانيّة. فيصوّر مثلاً شيطان الغضب بلونٍ أحمر، والزنى في هيئة امرأة عارية، وشيطان الشراهة بدينٍ بشكلٍ مبالغٍ فيه. ويظهر فوق الراهب الحقيقيّ المنتصر سبعة ملائكة تحمل سبعة تيجان لأنّ الراهب حقّق سبعة انتصارات.

---

<sup>٢</sup> - تعبيراً عن وعود المسيح: «مَنْ تَرَكَ أَبَا أَوْ أُمَّ ... مِنْ أَجْلِي يَنَالُ مِائَةَ ضِعْفٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَيَنَالُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ»، درجت بعض أيقونات الرهبان على أن تصوّر المكافأة المزدوجة لمن يزهد في هذه الدنيا: التاج يعبر عن الخيرات الأرضيّة، والإكلييل عن الخيرات السماويّة. ولا يُفصّد بالخيرات الأرضيّة المال والجاه والمناصب، بل يُفصّد الخيرات الروحيّة والنفسيّة: الشعور بالسلام والراحة والطمأنينة.

## الخاتمة

درج التقليد على تسمية هذه الأيقونة: «حياة الراهب الحقيقي». إنها حياة جهادٍ روحيٍّ دائمٍ ضدَّ كلِّ المغريات الخارجيّة والأهواء الداخليّة، ولا يشنّ الراهب جهاده معتمداً على قوّته الشخصيّة، بل معتمداً على نعمة الله. ولا شكّ في أنّ الرّسامين استطاعوا أن يعبروا بالصّور جزئياً عن جهاد الراهب الروحيّ، ولكنهم استعانوا كثيراً بالكتابة كما لاحظنا، ممّا جعل هذا النمط من الأيقونات يميل إلى أن يكون تعليمياً. فالمشاهد العاديّ لا يستطيع بسهولة فهم ما عبّر عنه الإيقونوغرافيّ في تصويره، لأنّه غير متألّف مع الحياة الرهبانيّة. لذلك تمّ اللجوء إلى الإكثار من الكتابة، وهو أمر نادر الحدوث في الإيقونوغرافيا، وهذا ما يجعل الأيقونة فريدةً ومميّزة.